الفصل التاسع

دولة المماليك (العصر المملوكي)

(٦٤٨ – ٩٢٢ هـ) / (١٢٥٠ – ١٥١٦ م)

بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد لم يعد العالم الإسلامي تجمعه دولة واحدة ، إلا أن دولة المماليك (٥٤ سلطانا) التي حكمت مصر والشام والحجاز ، أصبحت أقوى سلطة إسلامية في ذلك الوقت ، بالإضافة إلى أن المماليك أعادوا الخلافة العباسية في مصر شكليًا ليضفوا الشرعية على حكمهم ، وتم ذلك عندما قام **الظاهر بيبرس** باستدعاء أحد أبناء العباسيين سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) ، وعقد مجلسًا حافلا أثبت فيه نسبه وأعلنه خليفة ، ولكن بلا خلافة حقيقية ، فلم يكن له ولا لمن جاء بعده أي دور يذكر .

ويرجع أصل المماليك إلى جنسيات متعددة ، ومناطق مختلفة منها : بلاد التركستان ، وشبه جزيرة القرم ، وبلاد القوقاز ، **وآسيا الصغرى (تركيا)** ، وبلاد ما وراء النهر . والمعروف أن الإسلام قد بدأ في هذه المناطق منذ أيام الدولة الأموية ، حيث تمكنت الجيوش الإسلامية من الوصول إليها ، إلا أن الأهالي لم يعتنقوا الإسلام جديًا إلا في أوائل العصر العباسي في بداية القرن الثاني الهجري (١٣٢ هـ = ٧٥٠ م) .

ويرجع ظهور المماليك في العالم الإسلامي إلى ما قبل دولتهم في مصر والشام بأمد بعيد عندما استخدمهم الخلفاء العباسيون الأوائل ، واعتمدوا عليهم في توطيد دولتهم ، واستعانوا بهم في الجيش والإدارة ، ولعلّ الخليفة العباسي " المأمون " (١٩٨-٢١٨هـ = ٨١٤-٨٣٣م) هو أول من استعان بهم ، ثم استكثر منهم الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ = ٨٣٣-٨٤٢م) ، وشكل فرقا عسكرية من الأتراك ، وكان يُعنى بشرائهم صغارا ويستجلبهم من سمرقند وفرغانة والسند ، وغيرها من أقاليم ما وراء النهر (أنظر الملحق الرابع) ، حتى بلغ عددهم بضعة عشر ألفا ، فلمّا ضاقت بهم بغداد ، وزاحموا الناس في الطرقات نقلهم المعتصم معه إلى " سامراء " عاصمته الجديدة التي بناها لتكون حاضرة لملكه .

ولم يلبث أن شاع استخدام المماليك في كثير من أجزاء العالم الإسلامي ، وكانت مصر ممن انتهجت هذا النهج ، فأكثر " أحمد بن طولون " من شراء المماليك الديالمة ، سكان بحر قزوين حتى بلغ عددهم أكثر من ٢٤ ألفا ، والتزم الإخشيديون سُنة أسلافهم الطولونيين (راجع الفصل السابع) في جلب المماليك الأتراك والاستعانة بهم في الجيش . وهكذا ؛ توالى ظهور المماليك على المسرح السياسى والعسكرى كقوة حربية اعتاد السلاطين تكوينها عن طريق شراء الأطفال (كعبيد) وتربيتهم جنودا يخدمون الدولة عسكريا وسياسيا .

وتمر السنين .. ويتوسع السلاطين الأيوبية في استخدام المماليك .. إلى أن استطاع المماليك اقتناص الحكم من أسيادهم الأيوبيين فتكونت بذلك الدولة المملوكية . وهكذا ؛ انتهى الأمر بأن يحكم المسلمين المماليك ــ الرقيق ــ فى العصر المملوكى ..!!! وقد اعتمد المماليك على المؤامرات في قيام دولتهم بعد أن تعلموا هذا الفن ــ فن المؤامرات ــ في المدرسة الأيوبية ، حيث برع الأيوبيون في حياكة المؤامرات ضد بعضهم البعض ، وهذا ما فعله المماليك .

وينقسم المماليك إلى قسمين :

القسم الأول / المماليك البحرية : وهم الذين جلبهم الملك الصالح **نجم الدين أيوب** (من ملوك الدولة الأيوبية ــ أنظر الفصل السابع) ، وبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة بالقاهرة ، ثم اختار منهم فرقة للأسطول سميت " الفرقة البحرية " ؛ ولذلك سُموا المماليك البحرية . وهؤلاء حكموا مصر في الفترة (٦٤٨-٧٨٤ هـ / ١٢٥٠-١٣٨٢ م) وتداول عرش مصر في عهدهم أربعة وعشرون سلطانا (لم يؤخذ التكرار في الاعتبار عند عرض جداول السلاطين) .

القسم الثاني / المماليك البرجية : وهم شراكسة اشتراهم **السلطان قلاوون** [1] (من سلاطين المماليك) لتدعيم حكمه ، وتم له ما أراد إلى أن استولوا هم على الحكم من أحفاده الذين جاءوا بعده . وتم تسكينهم في أبراج قلعة الجبل (لأن الشراكسة كانوا أكثر عددا) لذلك سموا المماليك البرجية . وهؤلاء حكموا مصر في الفترة (٧٨٤-٩٢٣ هـ / ١٣٨٢-١٥١٧ م) وهم ثلاثة وعشرون سلطانا .

---

١ من ملوك الأسرة القلاوونية في دولة المماليك بمصر والشام . وبويع بالسلطنة بالقاهرة بعد مقتل عمه الناصر الثالث حسن بن محمد سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م) . وضربت العملة باسمه ، وقام بتدبير ملكه الأمير يلبغا (رئيس عساكره) فدامت سلطنته سنتين وأربعة أشهر . وتمرد عليه يلبغا فخلعه وأدخله القلعة سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م) فشغل باللهو والسُكْر والسماع إلى أن مات سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م) .

- **بداية الدولة ..**

بدأ بزوغ دولة المماليك مع **شجرة الدر** ؛ إحدى جواري **الملك الصالح نجم الدين أيوب** (سابع ملوك الدولة الأيوبية في مصر / أنظر الفصل السابع) وهي من مواليد أول القرن السابع الهجري ، وقد ملك حبها قلب الملك الصالح فتزوجها .. ورافقته في حروبه مع الصليبيين ، وكانت في بعض الأحيان تدير أمور الدولة عند غيابه في الحروب . ولما توفي الملك الصالح بالمنصورة سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) والمعارك ناشبة بين جيشه والصليبيين كانت عنده فأخفت خبر موته ، واستمر كل شيء كما كان ، وهي تقول السلطان مريض ما يصل أحد إليه . وحفظت الملك إلى أن وصل ابن زوجها **الملك توران شاه المعظم** الذي أكمل المعارك مستعينا بقواد المماليك (إقطاي / وأيبك / وقطز / وبيبرس) .. وانتصر على الصليبيين وأباد حملة لويس التاسع وأسره في مدينة المنصورة .. إلا إن توران شاه قابل جميل المماليك بالنكران .. فقتلوه بمؤامرة محكمة بالاشتراك مع شجرة الدر .

بعد مقتل الملك توران شاه سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥١ م) سقطت الدولة الأيوبية ، وتولت شجرة الدر حكم مصر .. فاحتج الخليفة العباسي ــ الخليفة الصوري ــ أن تتولي امرأة حكم المسلمين في مصر ، فكان لابد لشجرة الدر أن تتزوج ، فتزوجت وزيرها المملوكي **عز الدين أيبك** وتنازلت له عن الملك .. فأصبح أول سلاطين المماليك .. وبذلك انتقلت السلطة الى المماليك . وما لبث أن شب الخلاف بين عز الدين أيبك وشجرة الدر عندما أعلن أيبك أنه ينوي أن يخطب ابنة الأمير بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل ، وليزيد من إغاظة شجرة الدر رجع الي زوجته السابقة (**أم علي**) ، فاستعملت **شجرة الدر** كل دهائها حتي اقنعت **أيبك** بالصلح معها ، وحين جاء يقضي معها الليل كانت ليلته الاخيرة وقتله أتباعها ، فثارت المماليك عليها وقبضوا عليها ، ونصّبوا **ابنه الطفل نور الدين علي سلطانا على مصر ..!!! وتولى قطز الوصاية على السلطان الصغير** ، وشفت أم علي (زوجة أيبك الأولى) غليلها من غريمتها شجرة الدر وأمرت جواريها أن **يقتلنها ضربا بالقباقيب** .

وعندما أقبل الزحف المغولي على مصر ، عقد قطز مجلسا أعلن فيه أن البلاد في خطر وأن السلطان الصبي لا يستطيع أن يقوم بالأمر وعزله وتولى مكانه .. ولتوحيد الجهود ضد المغول ، بعث السلطان قطز لصديقه السابق بيبرس وأمراء المماليك البحريه ــ في الشام ــ ليتعاونوا معه ضد الخطر المغولي ، فأتوا إليه من الشام ليشاركوا في صد الهجوم التتاري ..

• معركة عين جالوت (المصريون في مواجهة التتار ١٢٦٠ م) ..

بعد سقوط بغداد في يد التتار ، واصل الزحف التتاري تقدمه تجاه سوريا بقيادة هولاكو ، واحتلوا حلب ، وحماة ، ودمشق ، وفي محاولة منهم للضغط على المسلمين عقدوا معاهدة مع أنطاكيّة ضد المسلمين . وأرسل هولاكو إلى سلطان مصر **سيف الدين قطز** (ثالث سلاطين المماليك في مصر) يطلب منه التسليم ، ويهدده بالقضاء على جيوش المسلمين كلها إذا لم يسرع بذلك ظنًا منه أنه سيدخل مصر بسهولة كما دخل بغداد ، إلا أن **سيف الدين قطز** أجبره على أن يفيق من أحلامه بصاعقة لم تكن متوقعة ، فقد مزق رسالته وقتل رسله وعلق رءوسهم على مدخل القاهرة ..

خرج **سيف الدين قطز** في أواخر شهر شعبان سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) لملاقاة التتار الذين وصلت طلائعهم إلى غزة بقيادة **كتبغا** ، ودارت رحى المعركة بين الطرفين في **عين جالوت بفلسطين** في الخامس والعشرين من رمضان الذي وافق يوم جمعة سنة (٦٥٨ هـ) ، وكان بجوار قطز **الظاهر بيبرس** أعظم فرسان المماليك ورئيس عساكره (جيشه) . وفي البدء حدث ارتباك شديد بين صفوف المسلمين ، فلما رأى **قطز** ذلك عمل على رفع معنويات جنده وشد عزيمتهم ، وألقى خوذته عن رأسه إلى الأرض وصاح بأعلى صوته : **وا إسلاماه .. وا إسلاماه** .. فكانت الصيحة التي بعثت الحماس في قلوب الجند فاستجابوا له ، ودوّت الصيحة في ميدان المعركة ، ورفع المسلمون أصواتهم بالتكبير : الله أكبر .. الله أكبر .. وعمدوا إلى قتال عدوهم وجاهدوا بإخلاص وثقة في سبيل الله ، للحفاظ على الدين والأرض والمال والولد ، فكتب الله لهم النصر المؤزر على جحافل التتار . وطارد **سيف الدين قطز** فلول التتار إلى منطقة بيسان حيث ظفر بهم وانتصر عليهم وقضى عليهم قضاءً مبْرمًا .

ودخل **سيف الدين قطز** دمشق في موكب عظيم ، وعزل من بقي من أولاد بني أيوب في دمشق ، واستبدل بهم من اختار من رجاله ، ثم رحل بعد ذلك إلى مصر . وفي طريق عودته تامر عليه (رئيس عساكره) **الظاهر بيبرس** .. فتقدم منه ووراءه عدد كبير من أمراء الجيش فتناولوه بسيوفهم وقتلوه سنة ٦٥٨ هـ .. ودفن قطز بالقصير ، ثم نقل إلى القاهرة ..!!! ثم تولى الظاهر بيبرس حكم مصر والشام من بعد " **قطز** " سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) ولقب نفسه باسم " **الملك الظافر** " ..!!!

ويتوالي علي حكم مصر أربعة وعشرون سلطانًا من المماليك البحرية ، وثلاثة وعشرون سلطانًا من المماليك البرجية كان أخرهم **طومان باي** الذي أعدم شنقا على باب زويله بالقاهرة بعد هزيمة المماليك في معركة الريدانية (حي العباسية الآن في القاهرة) أمام العثمانيين سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م . والجدولين التاليين يبينان سلاطين المماليك البحرية والبرجية وفترة توليهم الحكم ..

جدول يبين سلاطين المماليك البحرية وفترة توليهم الحكم

تسلسل	السلطان	مدة الحكم
١	**شجرة الدر** (نقلت الحكم الأيوبي إلى المماليك)	٦٤٨هـ/١٢٥٠م
٢	عز الدين أيبك.	٦٤٨هـ/١٢٥٠م
٣	المنصور نور الدين علي.	٦٥٥هـ/١٢٥٧م
٤	**المظفر سيف الدين قطز.**	٦٥٧هـ/١٢٥٩م
٥	**الظاهر ركن الدين بيبرس الأول البيرقداري.**	٦٥٨هـ/١٢٦٠م
٦	ناصر الدين بركة (ابن بيبرس الأكبر / خلع)	٦٧٦هـ/١٢٧٧م
٧	بدر الدين سلامش (ابن بيبرس الأصغر **خلعه السلطان قلاوون**)	٦٧٨هـ/١٢٨٠م
٨	**صلاح الدين خليل (ابن السلطان قلاوون)**	٦٨٩هـ/١٢٩٠م
٩	الناصر ناصر الدين محمد ، **للمرة الأولى.**	٦٩٣هـ/١٢٩٤م
١٠	العادل زين الدين كتبغا.	٦٩٤هـ/١٢٥٩م
١١	المنصور حسام الدين لاجين.	٦٩٦هـ/١٢٩٧م
١٢	الناصر ناصر الدين محمد، **للمرة الثانية.**	٦٩٨هـ/١٢٩٩م
١٣	المظفر ركن الدين بيبرس الثاني الجاشنكير .	٧٠٨هـ/١٣٠٩م
١٤	الناصر ناصر الدين محمد، **للمرة الثالثة.**	٧٠٩هـ/١٣٠٩م
١٥	المنصور سيف الدين أبو بكر.	٧٤١هـ/١٣٤٠م
١٦	الأشرف علاء الدين كوجوك.	٧٤٢هـ/١٣٤١م
١٧	الناصر شهاب الدين أحمد.	٧٤٣هـ/١٣٤٢م
١٨	الصالح عماد الدين إسماعيل.	٧٤٣هـ/١٣٤٢م
١٩	الكامل سيف الدين شعبان الأول.	٧٤٦هـ/١٣٤٥م
٢٠	المظفر سيف الدين حاجي الأول	٧٤٧هـ/١٣٤٦م
٢١	الصالح صلاح الدين صالح.	٧٥٢هـ/١٣٥١م
٢٢	الناصر ناصر الدين حسن .	٧٥٥هـ/١٣٥٤م
٢٣	المنصور صلاح الدين محمد.	٧٦٢هـ/١٣٦١م
٢٤	الأشرف ناصر الدين شعبان الثاني.	٧٦٤هـ/١٣٦٣م
٢٥	المنصور علاء الدين علي	٧٧٨هـ/١٣٧٦م
٢٦	الظاهر سيف الدين برقوق (برجي).	٧٨٣هـ/١٣٨٢م
٢٧	حاجي الثاني، للمرة الأولى.	٧٩١هـ/١٣٨٩م

جدول يبين سلاطين المماليك البرجية وفترة توليهم الحكم

تسلسل	السلطان	مدة الحكم
١	**الظاهر سيف الدين برقوق، للمرة الأولى.**	**٧٨٤هـ/١٣٨٢م**
٢	حاجي الثاني ، للمرة الثانية (بحري).	٧٩١هـ/١٣٨٩م
٣	الظاهر سيف الدين برقوق ، للمرة الثانية	٧٩٢هـ/١٣٩٠م
٤	الناصر ناصر الدين فرج ، للمرة الأولى.	٨٠١هـ/١٣٩٩م
٥	المنصور عز الدين عبد العزيز	٨٠٨هـ/١٤٠٥م
٦	الناصر ناصر الدين فرج ، للمرة الثانية	٨٠٨هـ/١٤٠٥م
٧	العادل المستعين (الخليفة العباسي ، الذي نصب سلطانا	٨١٥هـ/١٤١٢م
٨	المؤيد سيف الدين شيخ.	٨١٥هـ/١٤١٢م
٩	المظفر أحمد.	٨٢٤هـ/١٤٢١م
١٠	الظاهر سيف الدين ططار.	٨٢٤هـ/١٤٢١م
١١	الصالح ناصر الدين محمد.	٨٢٤هـ/١٤٢١م
١٢	الأشرف سيف الدين برسباي.	٨٢٥هـ/١٤٢٢م
١٣	العزيز جمال الدين يوسف.	٨٤١هـ/١٤٣٧م
١٤	الظاهر سيف الدين جقمق.	٨٤٢هـ/١٤٣٨م
١٥	المنصور فخر الدين عثمان .	٨٥٧هـ/١٤٥٣م
١٦	الأشرف سيف الدين إينال.	٨٥٧هـ/١٤٥٣م
١٨	المؤيد شهاب الدين أحمد	٨٦٥هـ/١٤٦١م
١٩	الظاهر سيف الدين خوش قدم.	٨٦٥هـ/١٤٦١م
٢٠	الظاهر سيف الدين بلباي.	٨٧٢هـ/١٤٦٧م
٢١	الظاهر تيموربوغا.	٨٧٢هـ/١٤٦٨م
٢٢	الأشرف سيف الدين قايتباي.	٨٧٢هـ/١٤٦٨م
٢٣	الناصر محمد.	٩٠١هـ/١٤٩٦م
٢٤	الظاهر قانصوه.	٩٠٣هـ/١٤٩٨م
٢٥	الأشرف جانبلات.	٩٠٥هـ/١٥٠٠م
٢٦	العادل سيف الدين تومان باي.	٩٠٦هـ/١٥٠١م
٢٧	الأشرف قنصوه الغوري.	٩٠٦هـ/١٥٠١م
٢٨	**الأشرف طومان باي (أعدم وعلقت جثته على باب زويلة في القاهرة في ٢٣ أبريل سنة ١٥١٧)**	**٩٢٢هـ/١٥١٦م**

وكمـــا نرى من الجدولين السابقين أن متوسط عمر السلطان في الحكم كان أقل من خمس سنوات فقط ..!!!

هذا وقد عاصر دولة المماليك ثلاث دول هي : دولة المماليك في الهند والذين حكموا الهند في الفترة (٦٠٢ - ٦٨٩هـ / ١٢٠٦ – ١٢٩٠ م) وقد اشتهر حكامها بحسن معاملة الناس

والحرص على العدل ، وخلفوا العديد من الآثار في مدينة دلهي . وجاءت بعدهم دولة السلاطين الخلجية ، ثم الدولة التغلقية التي أسسها غياث الدين تغلق . وبالرغم من تباعد المسافات والأزمان بين هذه الدول إلا أن الحضارة الإسلامية كانت تجمعهم بقيمها الخالدة ، وخاصة الوحدانية المطلقة في العقيدة ، والتسامح الديني وضربت أروع الأمثلة في المساواة العنصرية ، والرفق بالحيوان ، فكانت بحق إنسانية عالمية .

وقد أحيط تاريخ المماليك بتشويه كثير وافتراء ، ولكن هذا بالطبع لا ينفي أنهم كانوا أبطالاً مجاهدين أكملوا المسيرة التي بدأها السلاجقة في حرب الصليبيين ، وحققوا انتصارات عليهم ، ومنها انتصار المنصورة ، وقد قاموا بعد ذلك بتصفية الوجود الصليبي في مصر والشام . ويكفيهم فخرًا أنهم أوقفوا زحف التتار على مصر والشام والحجاز بانتصارهم الساحق عليهم في معركة عين جالوت التي تعد من أعظم معارك التاريخ الإسلامي .

وهكذا ؛ يدخل القادة والزعماء التاريخ بأعمالهم التي تغير تاريخ أمتهم لا بالسنوات التي عاشوها يحكمون ؛ فالخليفة العباسي الناصر لدين الله قضى ستا وأربعين سنة في منصب الخلافة (٥٧٥هـ - ٦٢٢هـ = ١١٨٠-١٢٢٥م) ، ومضى دون أن يحفر لنفسه مكانا في تاريخ أمته ، **في الوقت الذي قضى فيه " سيف الدين قطز " سلطانا في مصر نحو عام واحد فقط** ، نجح أثناءه في إلحاق أكبر هزيمة بالمغول في " **عين جالوت** " ، وإعادة الثقة في نفوس المسلمين ، ثم قضى نحبه على أيدي شركائه في النصر ، بعد أن جذب الانتباه إليه ، ونظر إليه الجميع بكل إعجاب وتقدير ، وكان دوره التاريخي ــ على قصر فترته الزمنية ــ كبيرا وباقيا .

* * * * * * * * * * * * * * *